العلاقات الثقافية بين القيروان وبين المراكز الفكرية

في المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري

د. محمد محمد زيتون

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد
بكلية العلوم الاجتماعية

كنت قد تناولت في العدد الأول من هذه المجلة الذي نشر عام ١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م العلاقات الثقافية بين القيروان وبين المراكز الفكرية في المشرق الإسلامي ، وأستهدف في هذا البحث أن أوضح هذه العلاقة بين القيروان وبين المراكز الفكرية في المغرب الإسلامي حتى يستكمل ويستبين دور القيروان كمنارة للفكر والثقافة في العالم الإسلامي بشتى أرجائه . فلقد كانت القيروان بعد الفسطاط هي المدينة الإسلامية الممثلة لحضارة الإســلام بكل أبعادها في الشمال الإفريقي ، والمعقل الثاني للإسلام والفكر الإسلامي في القارة الإفريقية ، ولم يقتصر تأثيرها على تلك القارة وحدها بل امتد إلى جزر البحر المتوسط وأوربا .

ولعل هذا البحث يلقي ضوءاً على طبيعة هذه العلاقات حتى تتبين لنا الصوره واضحة جلية بكل أبعادها الفكرية .

أولا – العلاقات بين القيروان وبين المغرب الأوسط والأقصى :

لقد كانت القيروان هي المركزالرئيسي القريب بالنسبة للمغربالأوسط والأقصى كما كانت المنارة العلمية الأولى التي أمتد شعاعها إلى هذه البقاع ، ولذلك لم يكن غريبا أن كان أبناء المغرب الأوسط والأقصى يقصدون القيروان للتزود من العلوم والمعارف والتلقي عن علماء القيروان والمشاركة في الحياة الفكرية ، وربما اشتد الطموح والشوق ببعضهم لكي يتجه إلى المشرق بعد ذلك فيرحل قاصد المراكز الفكرية في المشرق . وكانبعض أولئك العلماء يستقرون في القيروان بعد عودتهم من المشرق وكأنه يرى نفسه – بعد أن حصل على قدر كبير من المعارف – أهلاً للإقامة في القيروان والاستقرار فيها لكي يتلقى العلم عليه طلبة القيروان ، أو أنه يفضل الإقامة فيها كمركز فكري أوسع وأعمق يتناسب مع ثقافته ومع ما يطمح إليه من نشر لما حصل عليه من المعرفة .

ومن أبناء مدينة **تاهرت** في المغرب الأوسط الذين تلقوا العلم في القيروان وتثقفوا فيها ثم رحلوا إلى المشرق وعادوا إلى القيروان ليستقروا فيها بعد رحلتهم إلى المشرق بكر بن حماد الزناتي الشاعر المتوفي عام ٢٩٦هـ بعد حياة علمية حافلة امتدت ستة وتسعين عاما .مدح خلالها الخلفاء والأمراء وقال الشعر في مختلف فنونه وقد أخذ عنه أبناء القيروان رواية الحديث ودواوين شعر المعاصرين له الذين اجتمع بهم في رحلته إلى المشرق[١] . وممن قصد القيروان من أهل مدينة **فاس** في المغرب الأقصى درّاس بن إسماعيل (ت ٣٥٧هـ) الذي تلقى العلم في القيروان من أبي بكر بن اللباد[٢] ، ومن أهل مدينة **سجلماسة** عيسى بن سعادة السجلماسي (ت ٣٥٥هـ) الذي طلب العلم في القيروان وكان صاحب أبي الحسن القابسي عند الشيوخ[٣] ومن أهل **السوسي الأقصى** محمد بن أحمد السوسى الذي سكن القيروان واستوطنها وصحبه البهلول بن راشد وانتفع بههو وغيره من أهل القيروان[٤] وقد توفى بالطور .

وقد كان كثير من أهل سبتة وسجلماسة يحضرون في القيروان على محمد بن أبي زيد فمن أهل **سبتة** أبو عبد الرحمن بن العجوز ، وأبو محمد بن غالب ، وخلف بن ناصر ، ومن أهل سجلماسة أبو على بن أمدكنوا السجلماس[٥] .

---

(١) ابن عذاري توفي أواخر القرن السابع الهجري أبو عبد الله محمد المراكش : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب تحقيق كولان ، لفى بروفنسال – دار الثقافة بيروت لبنان حـ١ ص١٥٣ ، ١٥٤ وسنرمز له بعد ذلك بابن عذارى البيان المغرب .

(٢) القاضي عياض ت ٥٤٤هـ أبوالفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتّي : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك تحقيق أحمد بكير محمود دكتور منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان حـ٤ ص ٣٩٥ وسنرمز له بعد ذلك عياض المدارك .

(٣) عياض المدارك حـ٤ ص ٥٣٩ .

(٤) المالكي ت ٤٣٨ هـ أو سنة ٤٥٣هـ أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله المالكي : رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس مكتبة النهضة المصرية سنة ٩٥١ م ص١٢٨ وسنرمز له بعد ذلك المالكي رياض .

(٥) ابن فرحون برهان الدين ابراهيم بن على بن محمد بن فرحون المدني المالكي : الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ألفه سنة ٧٦١هـ الطبعة الأولى سنة ١٣٢٩ هـ مطبعة السعادة بمصر ص ١٣٦ ، ١٣٧ وسنرمزله بعد ذلك ابن فرحون الديباج المذهب .

وممن رحل إلى سبتة من أهل القيروان محمد بن الحارث الخشني (ت٣٦١هـ) الذي تفقه بالقيروان على أحمد بن نصر ، وأحمد بن يوسف ، وابن اللباد والمـُمْسي وغيرهم . وقد دخل محمد بن الحارث الخشْني سبتة قبل العشرين وثلاثمائة ، فحاول أهل سبتة الانتفاع بعلمه وبذلوا كل جهدهم لإطالة بقائه في بلدهم وقد تفقه عليه كثير من أبناء سبتة . وكان من آثار محمد بن الحارث أنه حقق قبلة جامع سبته إذذاك حيث وجد فيها تغريبا (أي انحرافا إلى الغرب) فامتثلوا رأيه وشرقوها (١)

وهذا يوضح لنا الصلة التي كانت تربط مدن المغرب الأوسط والمغرب الأقصى بالقيروان .

ثانياً ـ العلاقات بين القيروان وبين الأندلس :

وإذا كانت القيروان هي المدينة الإسلامية التي أقامها المسلمون لتكون حصنا صامدا ، ومنارة مشعة ومركزا أصيلا للحياة الفكرية في الشمال الإفريقي ، فإننا نجد لها دوراً كبيراً مهما وبارزا عندما عبر المسلمون إلى الأندلس وكان لزاماً للفكر الإسلامي أن يعبر معهم حيث شرع يشع من القيروان إلى الأندلس وتتابعت الحركة العلمية في نمو مستمر إلى أن أزدهرت بذور الفكر الإسلامي وصارت أشجارا باسقة تتنقل البلابل الصادحة على أغصانها وأفنانها من فرع إلى فرع ومن شجرة إلى أخرى أو من مدينة إلى أخرى ، وكانت البلابل الشادية بالفكر الإسلامي خلال تلك الفترة تحن إلى الموطن الأصلى القيروان ، فكانت الرحلات المتتابعة لأبناء الأندلس من شتى أرجائه وبقاعه تفد إلى القيروان للتزود من علمائها في شتى أنواع العلوم والفنون .

وليس من هدفنا أن نستقصي هنا كل من شد الرحال من الأندلس إلى القيروان

---

(١) الدباغ ت ٦٩٦هـ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري : معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان حـ١ الناشر مكتبة الخانجي بمصر سنة ١٩٦٨ تحقيق إبراهيم شبوح ، حـ ٢ ، ٣ ، ٤ نشر المطبعة الرسمية العربية بتونس سنة ١٣٢٠ هـ حـ٣ ص ١٠ وسنرمز له بعد ذلك الدباغ معالم الإيمان .

في سبيل متابعة الحياة الفكرية وللتزود من العلم أو من وفد من القيروان إلى الأندلس لنشر العلم والفكر فيها ويكفى أن نذكر أن ابن الفرضى في كتابه « تاريخ علماء الأندلس » قد ترجم في هذه الفترة لأكثر من مائة عالم قد رحلوا من مدن الأندلس إلى القيروان للتلقي على علمائها وخاصة عن سحنون بن سعيد وتلاميذه ممن كانوا يتمسكون بالمذهب المالكي . وقد قدموا إلى القيروان من كافة مدن الأندلس ونذكر على سبيل المثال ممن قدم من **قرطبة** إبراهيم بن يزيد بن قلزم (ت ٢٦٨هـ) الذي سمع من سحنون بن سعيد[١] ، وإبراهيم بن قاسم القيسى[٢] (ت٢٨٢هـ) . وأنه كان في مدينة **البيرة** في وقت واحد سبعة من رواة سحنون منهم إبراهيم بن خلاد اللخمى (ت٢٧٠هـ) وإبراهيم بن خالد[٣] (ت ٢٦٨هـ) ومن أهل **طليطلة** حزم بن غالب الرعيني[٤] وكان يستفتى ببلده وولى الصلاة وأحكام القضاء وزكريا بن قطام[٥] الذي ولى قضاء طليطلة . ومن **اشبيلية** عباس بن محمد بن عبد العظيم[٦] وكان يتولى الأوقاف (ت٣٢٩هـ) ومن أهل **شذونة** أصبغ بن منبه الذي سمع من محمد بن سحنون[٧] ومحمد بن وضاح الصدفى[٨] ، ومن أهل **مرسية** الصباح بن عبدالرحمن العتقى[٩] (ت ٢٩٤هـ) ومن أهل جيان طوق بن عمرو التغلبي[١٠] (ت٢٨٥هـ) وهو من أهل المسائل والرأي وهاشم بن محمد اللخمى الذي سمع من سحنون[١١] .

(١) ابن الفرضى ت ٤٠٣ هـ أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدى : تاريخ علماء الأندلس ، المكتبة الأندلسية — الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦ م ص ٩ وسنرمز له ابن الفرضى تاريخ علماء الأندلس .

(٢) ابن الفرضي تاريخ علماء الأندلس ص ١١ .

(٣) ابن الفرضي تاريخ علماء الأندلس ص ١٠٢٩ .

(٤) ابن الفرضي تاريخ علماء الأندلس ص ١١٧ .

(٥) ابن الفرضي تاريخ علماء الأندلس ص ١٥٠ .

(٦) ابن الفرضي تاريخ علماء الأندلس ص ٢٩٧ .

(٧) ابن الفرضي تاريخ علماء الأندلس ص ٧٩ .

(٨) ابن الفرضي تاريخ علماء الأندلس قسم٢ ص ٣٠ .

(٩ ابن الفرضي تاريخ علماء الأندلس قسم ١ ص ٢٠٢ .

(١٠) ابن الفرضي تاريخ علماء الأندلس قسم ١ ص ٢٠٨ .

(١١) ابن الفرضي تاريخ علماء الأندلس قسم ٢ ص ١٧١ .

ومن أهل **تدمير** عميرة بن عبد الرحمن العتقي وقد سمع من سحنون[1] (ت٢٢٢هـ) وعلاء بن محمد الذي سمع من أبي بكر بن اللباد[2] وكان كثير الكتب حسن التقييد (ت٣٤٧هـ) ومن أهل **بجانة** فضل بن سلمة الجهني (ت٣١٩هـ) وقد سمع من يوسف بن يحيي المغامي[3] ، ومن أهل **استجة** عبد الله بن حمدون الأسلمي سمع من سحنون[4] ومن أهل **تطيلة** محمد بن محمد وسمع من سحنون[5] ومن أهل وشقة فرج بن أبي الحزم وسمع من سحنون [6] وكثيرون غير هؤلاء قدموا من شتى مدن الأندلس لتلقى العلم في القيروان ولانرى حاجة إلى ذكر أسمائهم .

ويورد لنا الخشني في كتابه « قضاة قرطبة » أن من قضاة قرطبة الذين تلقوا العلم في القيروان والتقوا بعلمائها عامر بن معاوية اللخمي ، الذي رحل إلى القيروان فسمع من سحنون[7] . وأسلم بن عبد العزيز الذي تولى القضاء في قرطبة من سنة ٣٠٠ إلى سنة ٣٠٩ هـ وقد التقى بسليمان بن عمران في القيروان [8] ، ومحمد بن عبد الله بن عيسى (ت ٣٣٩هـ) الذي لقى من شيوخ القيروان محمد بن محمد بن اللباد ومحمد بن على البجلي وغيرهما[9] .

ويترجم الحميدي في كتابه « جذوة المقتبس » لخمسة وعشرين عالما رحلوا إلى القيروان وسمعوا من سحنون ومن تلاميذه وتلاميذ تلاميذه وخاصة محمد بن أبي

---

(١) ابن الفرضي تاريخ علماء الأندلس قسم ١ ص ٣٢٨

(٢) ابن الفرضي تاريخ علماء الأندلس قسم ٢ ص ٣٢٩ .

(٣) ابن الفرضي تاريخ علماء الأندلس قسم ٢ ص ٣٥٢ .

(٤) ابن الفرضي تاريخ علماء الأندلس قسم ٢ ص ٣١٦ .

(٥) ابن الفرضي تاريخ علماء الأندلس قسم ٢ ص ١٥ .

(٦) ابن الفرضي تاريخ علماء الأندلس قسم ١ ص ٣٤٩ .

(٧) الخشني ت ٣٦١هـ أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد القيرواني : قضاة قرطبة – المكتبة الأندلسية – نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦ ص ٩ وسنرمز له بعد ذلك الخشني : قضاة قرطبة .

(٨) الخشني : قضاة قرطبة ص ١٠٦ .

(٩) الخشني : قضاة قرطبة ص ١١٩ .

زيد ومنهم محمد بن موهب القبرى (ت ٤٠٦هـ) تفقه بالقيروان على محمد بن أبي زيد وابي الحسن القابسي[١] ، ومحمد بن يحى بن عمر (ت ٣٣٠هـ) يروى عن حماس بن مروان قاضي القيروان[٢] ، وعبد الله بن أبي الوليد (توفي قريباً من سنة ٣١٠ هـ) وقد سمع من محمد بن سحنون[٣] ، وعمر بن يوسف الذي رحل إلى القيروان فسمع من جماعة من أصحاب سحنون[٤] .

ويحدثنا القاضي عياض في كتابه « ترتيب المدارك » عن كثير من الطلاب والعلماء الذين قدموا من الأندلس إلى القيروان وتلقوا العلم على علمائها ومنهم محمد بن خالد بن مرتيل القرطبي (ت ٢٥٦ هـ) الذي سمع من سحنون في القيروان وكان رأس المالكية بالأندلس والقائم بالمذهب المالكي المدافع عنه[٥] . وعثمان بن أيوب بن أبي الصلت (ت ٢٤٦ هـ) وقد سمع من سحنون وهو اول من أدخل المدونة بالأندلس[٦] ومنهم عبد الله بن محمد بن القاسم بن حزم (ت ٣٤٤ هـ) من أهل قلعة أيوب من ثغر شرق الأندلس وقد سمع من ابن اللباد بالقيروان[٧] . وتمام بن عبد الله المعافري الطليطلي (ت ٣٧٧هـ) وقد سمع بالقيروان من أبي عبد الله بن مسرور الغسال[٨] . وعبد الرحمن بن محمد بن يحيي القرطبي (ت ٣٩٠ هـ) الذي سمع بالقيروان من ابن أبي زيد القابسي[٩] .

---

(١) الحميدي ت ٤٨٨ هـ أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس – المكتبة الأندلسية الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦ وسنرمز له بعد ذلك الحميدي جذوة المقتبس .

(٢) الحميدي جذوة المقتبس ص ٩٨ .

(٣) الحميدي جذوة المقتبس ص ٢٦٥ .

(٤) الحميدي جذوة المقتبس ص ٣٠٣ .

(٥) عياض : المدارك حـ٣ ص ١٣٤ .

(٦) عياض المدارك حـ٣ ص ١٣٧ .

(٧) عياض المدارك حـ٤ ص ٥٧٤ ، ٥٧٥ .

(٨) عياض المدارك حـ٤ ص ٥٧٨ .

(٩) عياض المدارك حـ٤ ص ٦٥٨ ، ٦٥٩ .

ويفيدنا ابن بشكوال صاحب « الصلة » ببعض من رحل من الأندلس إلى القيروان ومنهم سعيد بن محمد بن سيد أبيه (ولد سنة ٣٢٨هـ وعاش إلى سنة ٣٩٧هـ) وابن العلاء القشيري ومحمد بن عمروس بن العاصي (ت٤٠٠هـ) ووسيم بن أحمد ابن محمد الأموي (ت٤٠٤هـ) وغيرهم ومعظمهم تلقى بالقيروان عن أبي محمد بن مسرور وابي محمد بن أبي زيد[١] .

كما أورد ابن فرحون في كتابه « الديباج المذهب » عددا ممن رحل إلى القيروان من الأندلس لتلقى العلم إلا أن من ذكرهم لم يجاوز من ذكرهم هؤلاء المؤرخون السابقون والمعاصرون لفترة البحث[٢] . وقد كان من الإطباء الذين رحلوا من الأندلس إلى القيروان لتلقى العلم عن ابن الجزار أبو حفص عمران بن بريق الأندلسي الذي لازم ابن الجزار في القيروان فترة أخذ عنه فيها الطب وروى عنه كل تآليفه في الطب ثم عاد إلى الأندلس فكان في خدمة الأمراء الأمويين وخاصة عبد الرحمن الناصر ، وقد أدخل ابن بريق كتب أستاذه ابن الجزار إلى الأندلس فتلقاها عنه الإخصائيون في الطب من مسلمين ويهود ونصارى ومنهم سليمان بن جلجل[٣] .

ولقد كان طلبة الأندلس يهتمون بتلقي العلم في القيروان ويستعدون لذلك بكتابة الكتب قبل القدوم لسماعها حرصا منهم على الاستفادة الكاملة . وقد حدث أن قوما من الأندلسيين قد كتبوا « المدونة » وأرادوا أن يسمعوها من سحنون . فلما

---

(١) ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك ، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم حـ١ ، طبع في مدينة مجريط بمطبعة ، روخس سنة ١٨٨٢ هـ حـ١ ص ٢٠٩ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٥٨٥ وسنرمز له بعد ذلك . ابن بشكوال : الصلة .

(٢) ابن فرحون الديباج المذهب ص ٣٧ ، ٨٤ ، ٩٧ ، ١٤٠ ، ١٧٣ .

(٣) ابن جلجل ألفه سنة ٣٧٧ هـ أبو داود سليمان بن حسان الأندلس طبقات الأطباء والحكماء — تحقيق فؤاد سيد مطبعة المعهد العامي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة سنة ١٩٥٥ ص ١٠٧ وسنرمز له بعد ذلك ابن جلجل طبقات .

وأنظر : حسن حسني عبد الوهاب ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية الناشر مكتبة المنار تونس سنة ١٩٦٥ ص ٣٠٩ ، ٣١٢ وسنرمز له بعد ذلك حسن حسني : ورقات .

قدموا إليه قال لهم : إني مشغول فقال له شاب منهم . إنا قد كتبنا المدونة فما نصنع بها ؟ لئن لم تسمعناها لنطرحنها في هذا الغدير وأشار لغدير ماء بين يديه فتغير سحنون وعض على بنانه من الغيظ ثم قام إلى أزواجه (اثنين من البقر يجران المحراث وتحرث الأرض) وهي تحرث ثم رجع إليهم فقال : إني لو احتجت إليكم في مثل هذه ورفع شيئا من الأرض ماسوى علمي عندكم شيئا ثم أسمعهم[1] . أي أنه لم يكن يتقاضى على تعليمه لهم أجراً وهذا مارفع مكانته ومنزلته .

ومع كثرة من سمع من سحنون في القيروان من أهل الأندلس فإن وفودهم كانت تتتابع للسماع منه حتى يوم وفاته ، وقد ورد أن سليمان بن سالم رأى يوم مات سحنون مشايخ من أهل الأندلس يبكون ويضربون خدودهم كالنساء يقولون يا أبامحمد ليتنا تزودنا منك نظرة نرجع بها إلى بلدنا[2] ، وكانالْحُـجّاج من أهل الأندلس يغتنمون فرصة مرورهم بالقيروان ويقيمون وقتا فيها يتعلمون من علمائها[3] .

وبجانب العلاقة عن طريق الرحلة والتلقي مشافهة كانت هناك علاقات فكرية بين القيروان وبين الأندلس **عن طريق المراسلة** فقد أورد القاضي عياض إشارة إلى مراسلة بين قاضي القيروان سحنون وبين قاضي قرطبة حيث نجد فيها : « إنه جاء في كتاب سحنون إلى محمد بن زياد قاضي قرطبة يأمره بالشدة والمعاقبة لمن تفالس وتكرار الأدب والعذاب عليه حتى يؤدي أو يموت ، قال أي سحنون بذلك أخذت في ابن أبي الجواد ضربته أربعا وعشرين ومائة درة وأوقفته يوم الجمعة للناس في صحن الجامع وسوف أضربه أبدا حتى يؤدي تحت الدرة أو يموت[4] .

وقد كانت هذه المراسلات الفكرية متصلة بين قاضي القيروان وقاضي قرطبة .

---

(١) المالكي رياض ص ٢٦٧ .
(٢) المالكي رياض ص ٢٨٨ .
(٣) المالكي رياض ص ٤٠٧ .
(٤) عياض المدارك ج٢ ص ٦٠٦ .

وكان قضاة القيروان يرون أنهم المقدمون على قضاة قرطبة ولهم المنزلة الأولى ويصور ذلك ماورد من أن سليمان بن عمران قاضي القيروان كان يكتب إلى عمرو بن عبد الله : من سليمان بن عمران قاضي القيروان إلى عمرو بن عبد الله — قاضي قرطبة فكان عمرو يسوغ ذلك ولاينكره عليه ويكتب إليه الجواب بتقديم سليمان بن عمران وتأخير نفسه فلما ولى سليمان بن أسود — أي قضاء قرطبة — جاوبه بتقديم نفسه فكان سليمان بن عمران يقول : ياعجبا يعزل مثل عمرو بن عبد الله عن القضاء ويلي مثل سليمان بن أسود ذلك الجلف الجافي(١) .

وكما كان أهل الأندلس يقدمون إلى القيروان لطلب العلم كان بعض العلماء من أبناء القيروان يرحلون إلى الأندلس ويستوطنون فيها حيث يبثون فيها علمهم ومعارفهم ومن هؤلاء العلماء حباشة بن حسن اليحصبي الذي تلقى العلم بالقيروان من زياد بن عبدالرحمن ابن زياد ومن إبراهيم بن عبد الله الزبيدي المعروف بالقلانسي ثم رحل إلى الأندلس فلزم العبادة ودراسة العلم والجهاد إلى أن توفي بقرطبة سنة ٣٧٤هـ(٢) ، وتميم بن محمد بن أحمد التميمي الذي رحل إلى الأندلس واستوطن قرطبة وحدث عن أبيه وعن عبد الله بن محمد الرعيني وجماعة سواهم وقد سمع منه الناس كثيرا من الأحاديث النبوية إلى أن توفي بها سنة ٣٦٩ هـ(٣) ومحمد بن هشام اليحصبي الذي تلقى العلم بالقيروان عن يحي بن عمر ونظرائه من علماء القيروان ثم رحل إلى قرطبة واستوطنها وتلقي عليه العلم كثير من أبنائها وقد أسند إليه النظر في الأوقات أيام ولاية محمد بن عبد الله بن أبي عيسى على القضاء وتوفي بها سنة ٣٤٣هـ(٤) .

ومحمد بن أحمد البلوى القيرواني الذي سكن بجانة وحدث بها عمن تلقى عنهم من علماء القيروان(٥) ، ومحمد بن أحمد الفارسي من أهل القيروان وقد تعلم بها

(١) الخشني قضاة قرطبة ص ٧٠ ، ٧١ .
(٢) ابن الفرضي تاريخ علماء الأندلس ص ١٢٨ .
(٣) ابن الفرضي تاريخ علماء الإندلس ص ٩٩ .
(٤) ابن الفرضي تاريخ علماء الأندلس قسم ٢ ص ١١١ .
(٥) ابن الفرضي تاريخ علماء الأندلس ص ١١١

وبمكة والاسكندرية ثم رحل إلى الأندلس فكان يتنقل بين قرطبة وشذونة واشبيلية واستقر أخيرا بقرطبة وسمع الناس منه كثيراً من العلم والمعرفة وكان خيّراً متمسكا بالسنة شديد الإنكار على أهل البدع إلى أن توفي سنة ٣٥٩هـ (١) .

ومنهم محمد بن الحارث الخشني الذي ولد ونشأ بالقيروان حيث تعلم بها ثم رحل إلى قرطبة فسمع من شيوخها . وكان حافظا للفقه عالما بالفتيا حسن القياس وقد ولي الشورى بقرطبة وكان يعمل الأذهان ويتصرف في ضروب من الأعمال اللطيفة مع قوله للشعر البليغ وقد تردد في كور الثغر ثم استقر بقرطبة وألف كتبا كثيرة وخاصة في التاريخ والفقه وتوفي سنة ٣٦١ هـ(٢) ، ومحمد بن الحسين بن النعمان بن المقرىء القيرواني وقد عني بالقرآن وجوده على علماء القرآن في القيروان ومصر ثم رحل إلى الأندلس فقرأ عليه كثير من الناس القرآن وتوفي بالأندلس سنة ٣٦٨ هـ(٣) .

ومنهم محمد بن يوسف الوراق الذي نشأ بالقيروان وتعلم بها ثم رحل إلى قرطبة واستوطنها وألف بالأندلس للحكم المستنصر كتابا ضخما في مسالك إفريقية وممالكها وغير ذلك من الكتب الكثيرة وخاصة في تاريخ ملوك إفريقية وأخبار تاهرت ووهران وسجلماسة وغيرها (٤) . ومكي بن محمد حموش المقريء الذي ولد بالقيروان وقرأ على شيوخها ثم رحل إلى مصر وقرأ بها على عبد المنعم بن غلبون المقريء الحلبي ساكن مصر وعلى غيره من القراء ثم ذهب إلى الأندلس واستوطن قرطبة وقرأ عليه الطلبة بها وكان إماما مشهورا في القراءة(٥) .

---

(١) ابن القرضي تاريخ علماء الأندلس ص ١١٢ .
(٢) ابن القرضي تاريخ علماء الأندلس ص ١١٣ ، وابن فرحون الديباج المذهب ص ٢٥٩ .
(٣) ابن الفرضي تاريخ علماء الأندلس ص ١١٣ .
(٤) الحميدي جذوة المقتبس ص ٧- .
(٥) الحميدي جذوة المقتبس ص ٣٥١ .

وعلى اثر قيام الخلافة الفاطمية الشيعية في الشمال الافريقية واضطهادها لعلماء القيروان السنيين رحل من القيروان بعض أولئك العلماء إلى جهات متعددة وخاصة الأندلس التي كانت تناوئ الفاطميين العداء . بل نجد أن الأندلس كانت ترحب بمن يأتي إليها ويفد إلى رحابها من علماء القيروان وخاصة الذين كان الشيعة يضطهدونهم ومنهم حكم بن محمد القيرواني القرشي الذي سجنه عبيد الله المهدي بسبب مهاجمته للفاطميين وكان يتردد بين قرطبة والقيروان[1] ، وكان ذلك مما ساعد على تقوية العلاقات الثقافية ونقل الأفكار بين القيروان والأندلس .

وكان الذين يرحلون من القيروان إلى الأندلس لايقصدون التعلم فيها والتلقي عن علمائها وإنما كان ذلك هو شأن أهل الأندلس الذين كانوا يأتون إلى القيروان لأجل التعلم في تلك المنارة العلمية التي كانت تشع على أرجاء المغرب الإسلامي كله . وإليها كانت تفد رحلات الطلاب من الجهات المحيطة بها وأما عالم القيروان الذي كن يذهب إلى الأندلس فإنما يذهب لينشر علمه ويعلم الناس هناك ، ولم نجد عالما من القيروان ذهب إلى الأندلس لطلب العلم ثم عاد ليعلم في القيروان ماتلقاه في الأندلس .

ولقد كان لكثرة تلقي الطلاب عن سحنون وتلاميذه أثر في انتشار المذهب المالكي في الأندلس والالتزام به ، ولعل ماسبق يضع أمام أعيننا الصورة الحقيقية للعلاقات الفكرية المتنوعة التي أوجدت جسرا قويا بين القيروان وبين الأندلس ويوضح الدور العظيم الذي قامت به القيروان بالنسبة للأندلس حيث كانت هي همزة الوصل بين المشرق وبين الأندلس في بث ونشر الثقافة الإسلامية .

---

(١) الدكتور السيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ص ٦١٥ نقلاً عن التشيع في الأندلس لمحمود مكي ص ١٢٤ .

ثالثاً ـ العلاقات بين القيروان وبين صقلية :

لقد كان قائد جيش الفتح الإسلامي لصقلية هو أسد بن الفرات فقيه القيروان وقاضيها وهذه حقيقه تصور لنا طبيعة هذا الفتح والجنود الذين كانوا تحت أمرته ، ولاشك كذلك أن كثيرا منهم كانوا من الفقهاء والعلماء الصالحين والزهاد .

وإذا كان هذا هو مايتسم به جيش الفتح لصقلية فإن هذه السمة كان لها الأثر الكبير في نشر الثقافة الإسلامية فيها . وعند استقرار المسلمين فيها نجد الحنين إلى الموطن الأصلي من أبناء هذا الجيش الفاتح يجذبهم إلى القيروان .

فبعد استقرار الفتح لهذه الجزيرة ، **أقبل أبناء صقلية وأبناء الفاتحين إلى القيروان** لتلقي العلم والمعرفة عن علماء القيروان ، وإذا كان علماء الطبقات لم يذكروا لنا أسماء من رحل من صقلية قاصدا القيروان لتلقي العلم بها إلا اننا نجد ابن الفرضى يذكر لنا وافدا إلى الأندلس من صقلية بعد أن تعلم في القيروان وهو عباس بن عمرو الكناني الوارق الذي خرج من صقلية إلى القيروان سنة ٣١٥ هـ فمكث بها . إلى سنة ٣٣٦هـ حيث ذهب إلى الأندلس وكان بصيرا بالرد على أصحاب المذاهب عالما بالكلام حافظا لأخبار أبي عثمان الحداد وقد حدث بالأندلس عن أساتذته وقد كتب عنه ابن الفرضى نفسه بعض أحاديثه وتوفي بقرطبة سنة ٣٧٩ هـ[١] .

وإذا كان المؤرخون قد أغفلوا ذكر من رحل من صقلية إلى القيروان فإنهم قد زودونا بأسماء بعض من قام بنشر الفكر الإسلامي في صقلية ممن رحل من القيروان إلى صقلية وخاصة من القضاة الذين كانت الدولة تسند إليهم القضاء فيها ، فكانوا يقومون بجانب القضاء بالتعليم ونشر العلوم والمعرفة فيها . ومن هؤلاء محمد بن سليمان بن سالم القطان الذي سمع من سحنون وابنه وغيرهما من علماء القيروان ورحل إلى المدينة فحدث عن محمد بن مالك بن أنس وتعلم على يديه كثير من طلبة القيروان

---

(١) ابن الفرضي تاريخ علماء الأندلس ص ٢٩٩ .

ولقوا كثيرا من بره بهم . وكان الغالب عليه الرواية والتفسير وألف في الفقه كتبا تعرف بالسليمانية ، وقد تولى القضاء في باجة ثم مصالح القيروان وأخيرا أسند إليه القضاء في صقلية فخرج إليها سنة ٢٨١هـ فنشر فيها علما كثيرا وعنه انتشر مذهب مالك في صقلية وظل فيها قاضيا ومعلما إلى أن توفي بها سنة ٢٨٩هـ[١] ، ومنهم أبو عمرو ميمون بن عمرو الذي سمع من سحنون وتولى القضاء بصقلية وكان مثالا في الصلاح والتقى والزهد وتوفي سنة ٣١٦ هـ[٢] ، وأبو القاسم الطرزي الذي بقى قاضيا في صقلية مدة عشر سنوات[٣] وغيرهم من القضاة الذين قاموا بالتدريس في صقلية .

وممن رحل إلى صقلية من أهل القيروان لنشر العلم سعيد بن يحيي المعروف بابن الفرّا وقد سمع من ابن سحنون وغيره ومات بصقلية[٤] ، ولقمان بن يوسف الغساني الذي تلقى العلم بالقيروان على أصحاب سحنون وعيسى بن مسكين وغيرهم وكان عالما باللغة والحديث والرجال والقرآن يحيط باثنى عشر صنفا من العلوم وقد سكن صقلية مدة أربع عشرة سنة يدرس المدونة لأبنائها ولا شك أنه قد بث فيها قدرا كبيرا من علمه الغزير الذي حصله وقد توفي بتونس سنة ٣١٩ هـ[٥] .

وربما شجع بعض العلماء على الرحلة إلى صقلية ماطرأ على القيروان من مقاومة عنيفة لعلماء السنة خلال الحكم الفاطمي لاسيما بعد أن تمكن الخليفة الفاطمي من

---

(١) عياض المدارك حـ ٣ ص ٢٣٤ الدباغ معالم الإيمان حـ٢ ص ١٣٦ .
وانظر : دكتور إحسان عباس العرب في صقلية مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٩ ص ص ٩٦ وسنرمز له بعد ذلك إحسان عباس : العرب في صقلية .

(٢) ميخائيل أماري : المكتبة الصقلية نصوص من التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع طبع مكتبة المثنى ببغداد بالأفست ص ١٩١ وسنرمزله بعد ذلك أمارى المكتبة الصقلية .

(٣) أماري المكتبة الصقلية ص ١٨٩ نقلا عن رياض النفوس احسان عباس العرب في صقلية ص ٥٥ .

(٤) عياض المدارك حـ٣ ص ١٣٠ .

(٥) عياض المدارك حـ٣ ص ٣١١ ، ٣١٣ ، المكتبة الصقلية ، ص ١٩٢ .

القضاء على ثورة أبي زيد التي أيدها وشارك فيها فقهاء المالكية مما حمل كثيرا منهم على الهجرة إلى صقلية ، ومع أن هذه الجزيرة كانت تابعة للفاطميين غير أن الاضطهاد لعلماء السنة فيها كان أخف منه في القيروان[1] . فقد كانت صقلية بعيدة نسبياً عن سلطة الفاطميين المركزية واهتماماتها وقدرتها .

وممن كان له جهد تأليفي وتعليمي في صقلية خلف بن أبي القاسم الأزدي المعروف بالبرادعي الذي تلقى العلم في القيروان من أبي محمد بن أبي زيد وأبي الحسن القابسي إلا أن علماء القيروان كرهوه لمصاحبته سلاطين القيروان الشيعيين فلم تحصل له رياسة في القيروان . فخرج منها قاصدا صقلية فكانت له منزله كبيرة فيها والف كتبا كثيرة منها كتاب التهذيب في اختصار المدونة الذي نال شهرة واسعة في المغرب والأندلس فأقبل طلاب الفقه على تلقيه منه في صقلية بل إن المناظرة في جميع حلقات الدروس في صقلية كانت بكتاب التهذيب للبرادعي وقد أكسبه ذلك منزلة رفيعة وله أيضا كتاب التمهيد لمسائل المدونة ، وكتاب الشرح والتمامات لمسائل المدونة وكتاب اختصار الواضحه ونلاحظ أن كتبه إنما هي اختصار لكتاب أو شرح له إلا أن إقبال الطلاب على دراسة كتبه أكسبه شهرة واسعة[2] .

ولا شك أن الكتب كانت تنقل من القيروان إلى صقلية وبخاصة المدونة في الفقه المالكي والموطأ وملخصه الذي ألفه القابسي وغير ذلك من الكتب المؤلفة في فنون العلم المختلفة التي ازدهرت في القيروان[3] مما قوى الصلة الثقافية بينهما .

وقد كان بعض القائمين بالترجمة في القيروان من صقلية كما أن بعض سكان القيروان قد تعلم في صقلية اللغة الصقلية وأتقنها .

---

(١) إحسان عباس العرب في صقلية ص ٩٧ .
(٢) ابن فرحون الديباج المذهب ص ٢ج١ .
(٣) إحسان عباس العرب في صقلية ص. ٩٢ — ٩٥ .

وهذا يوضح لنا العلاقات الفكرية والثقافية التي كانت تربط بين القيروان وصقلية . كما كان للقيروان علاقات فكرية وثقافية أيضا بالجزر التي كانت تحت سلطة القيروان أو تتصل بها كجزيرة قوصرة **وجزيرة مالطة وجزيرة سردانيا وجزيرة كرسكة**[1] .

وبهذا العرض يتبين لنا الدور المشرق العظيم الذي اضطلعت به مدينة القيروان في نشر الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي في القارة الإفريقية وفي أوربا ، ثم حرص أبنائها وعلمائها على تقوية الروابط مع المراكز الفكرية في المشرق والمغرب على السواء . وهكذا كانت القيروان بحق منارة مشعة للإسلام وفكره وثقافته في شتى أرجاء العالم الإسلامي . وتحقق لها دعاء مؤسسها الصحابي الجليل عقبة بن نافع الفهري عندما دار حول مسجدها وقال : « اللهم املأها علما وفقها ، واعمرها بالمطيعين والعابدين واجعلها عزا لدينك وذلا على من كفر وأعز بها الإسلام وامنعها من جبابرة الأرض » . رحمه الله ورضى عنه ، وأثابه ثواب كل من أقام في القيروان مرابطاً أو خرج منها مجاهدا ، وأجر كل من قدم إليها متعلما أوخرج منها معلما . . لا ينقص ذلك من مثوبة أي من هؤلاء شيئاً .

(١) انظر : عثمان الكعاك : الحضارة العربية في حوض البحر الأبيض المتوسط . طبع معهد الدراسات العربية سنة ١٩٦٥ هـ ص ٨ ، ١٣ ، ٢٦ ، ٤١ إنظر : الحبيب الجنحاني دكتور : القيروان عبر عصور ازدهار الحضار الإسلامية في المغرب العربي الدار التونسية للنشر سنة ١٩٦٨ ص ١١٦ .